الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

— ١ —

هل الفلسفة الاغريقية وليدة الفلسفة الشرقية ؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة ، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستعصرين في العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتي الميزان في هذه الفكرة العويصة التي يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التي كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث . تلك المشكلة هي : هل الفلسفة اليونانية ابتدعت في يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ؟ أو هي تراث نظمه الاغريق ؟ وإذا كانت الأولى ، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم « أرسطو » حين قرر أن « تاليس » هو أول الفلاسفة جميعا ؟ أو يمكن إصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة ؟ وإذا كانت الثانية ، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذي نشأت الفلسفة بين ربوعه ؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في تاريخ العقلية البشرية في تلك المستعمرة اليونانية التي تدعى « أيونيا » والتي سبق أن أسسها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا في عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التي لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسي والأدبي ، فافسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقي الجبار ، وحلوا عقاله الذي كان قد أمسكه في آسيا عن الصولان في عصور ماقبل الاستعمار الجديد . وأول من بدأت العقلية الاغريقية القديمة تتمثل فيه هو : « تاليس الملطي » ، أول فيلسوف في الدنيا . وإذاً ، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر ، وهي لاتصعد في رأي أرسطو إلى ماوراء القرن السادس قبل المسيح ، ولكن « ديوجين لا إرس » المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه « حياة الفلاسفة » عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثا ممتعا يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد . وأنه كان أستاذه في كل ماوراء الطبيعة كما كان أستاذه في العلوم الطبيعية والرياضية بانواعها ، وأن الغرب جلس في الازمان المظلمة مجلس التلميذ المستلهم من الشرق العالم المستنير

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين ، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل في هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات في شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها ؛ أما في العصور الاثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحي ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية ، بل إنهم نسبوا كل شيء عندهم إلى السماء ، حتى تلك المتناثرات الاخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة في حكم مقتضبة ، ويتخذون دليلا على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجداب الفلسفة في الشرق كل هذا الوقت الطويل الذي تلا العصور الاثرية ، ويقولون : إنه لو كان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث في بلاد الاغريق . ومن أشهر أصحاب هذا الرأي في العصور الاخيرة « بار تلمي سانت ـ هلير » ، إذ يقول في مقدمة ترجمته « للكون والفساد » ما نصه : « أما من جهة الفلسفة الشرقية فاننا لانعرف ، بل ربما لن نعرف أبدا من امرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها ، فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدراكنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات ، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها

كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا مع التسليم بانها تقدمتها فى الهند وفى الصين وفى فارس وفى مصر فاننا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (١)

ثم قال :

ولقد تصديت فوق ذلك لتبيين أن العبقرية الإغريقية هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها ، فاذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الابهام . لا مراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة أو فى العلم بعبارة أعم ليسوا شيئا مذكوراً فى جانب الاغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم (٢) .

وقال أيضا : « وإن العلم على جميع صوره كان معدوماً فى الشرق فاخترعه الاغريق ونقلوه إلينا » (٣) .

ولهذا الرأى مقلدون (٤) فى مصر كما هى الحال فى كل فكرة تطعن على الشرق .

وفريق آخر يذهب الى مانقله « لإرس » من أن الفلسفة الاغريقية ليست إلا تراثا شرقياً متغلغلا فى القدم ويستندون فى هذا إلى براهين أهمها ما يأتى :

١ — إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة فى التقدم بسهم نفاذ كمدنيتى مصر والعراق مثلا ، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الاغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الاغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التى تصرح بأن كل شىء فى الكون منشؤه الماء إذ تقول فى مطلعها ماترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد قد فازت باسمها ولم تكن الأرض هى الأخرى قد تسمت بهذا الاسم كان أبوهما : « أبسو » وأمهما « تياما » وهما : « الماء » أو جوهر كل شىء ممتزجين امتزاجا تاما قصد التناسل والإخصاب » (١) .

فاذا لاحظنا أن الانشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بعهد بعيد ، وأن سيادتها فى القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ماتكون قوة وتغلغلا فى النفوس ، ولاحظنا الصلات التجارية والاجتماعية فى ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح فى سهولة كفة تأثر تاليس بتلك الانشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا ان نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته فى أصل الكون .

٢ — ان العلماء المشتغلين بالبحث فى الانسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقى ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

٣ — إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى فى الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها فى الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

٤ — إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الاهرام فى بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطا بعيدة .

وفى هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب (٢) .

٥ — هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ماوصلت اليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأى يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو فى المدارس الهندية السابقة

(١) راجع مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفى السيد باشا صفحة ٢

(٢) انظر صفحة ١٠٤ من مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو

(٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة

(٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « ربهيه »

(٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه

لعصره ، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد فى المدارس الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك ممن يسند هذا الرأى الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة إنما هى وليدة الاساطير الشرقية ، فقد وجب على كل باحث فى الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هـذه الشعوب الشرقية ، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التى تكون منها الجسم المراد درسه

غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتقفهم موقف الحروجة والعسر مثل :

١ — مايزعمه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة بدء الخلق فى الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة : وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة فى الشرق شىء واحد ، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية ظهرت فى الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الإغريق . وهذا هو الباعث الأول الذى قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية فى نظر علماء العصور الحديثة وحط من قيمتها عندهم

٢ — إن المصادر التى وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لاتكفى لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصى الذى لايرضى من المشكلة بأقل من الاحاطة بجميع نواحيها ، وإن كانت هذه الندرة فى المراجع لم تحل بين الباحثين المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات الضخمة عنها مثل كتب :

(ا) « هيكل تاريخ الفلسفة الهندية » تأليف « ماسون أورسيل » وقد ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ب) « تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية » تأليف « أولترامار » ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ج) « تاريخ الديانات » تأليف « دينيس سورا » ظهر فى سنة ١٩٢٤

(د) « أصول الديانة الاسرائيلية » : « الجيوفية القديمة » تأليف « س . كوسان » ظهر فى ١٩٣١

(ه) « تاريخ الفلسفة الصينية » تأليف « زانكير » ظهر فى سنة ١٩٣٣

على أن هاتين العقبتين المتقدمتين لاتمنعاننا من أن نعتبر دراسة الفلسفة الشرقية هى أول مايجب على المشتغل بدراسة الفلسفة الاعتناء به ، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذى كان من عوامل حروجة دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجتهد فى حله بان نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغى لنا أن نشير إلى أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين ، إذ يصرح بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصا بالشرقيين فى العصور القديمة ، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت فى مصر والعراق فى الأزمان الغابرة ، كما وجدت كذلك فى أوربا فى القرون الوسطى . وليس القديس « أوجستان » والقديس « توماس » والقديس « أنسلم » — وهم مشاهير فلاسفة المسيحيين فى أوربا — إلا مظاهر لهـذه الفترة البشرية التى نشأت على مزج الدين بالفلسفة ، بل إن « ديكارت » و « اسبنوزا » و « كانت » أنفسهم — وهم اعلام فلاسفة العصر الحديث — ليسوا إلا مظهراً آخر من مظاهر هـذا الانعطاف الطبيعى . وإذاً ، فرمى الشرق القديم وحـده بهذه النقيصة — إن صح أنها نقيصة — ضرب من العنت والجور اللذين يجب أن يتنزه عنهما الباحث المحايد

وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى ، فإننا سنحاول هنا أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التى ظهرت فيها ، عاملين — كما قدمنا — على تمييز الفلسفة من العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وسنبدأ دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً ، وهى الديانة المصرية التي لم يعرف التاريخ أعرق منها فى أغوار الماضى البعيد .

(يتبع)

الدكتور محمد غلاب